علاقة الطرق الصوفية بالمقاومات الشعبية المسلحة خلال المرحلة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر (1832- 1916)

الأستـاذ بكاي رشيد
- جامعة الأغواط

مقدمة:

شكّلت المقاومات العديدة التي تلت جهاد الأمير عبد القادر ظاهرة مميزة، كانت القواسم والمميزات المشتركة بينهما أكثر ممّا كان يميزها عن بعضها البعض، وإذا كان تباينها في الزمان والمكان في مختلف مناطق البلاد، وفي الارتباط بزعامات قبلية أو دينية كثيرة، فإنه بالإمكان حصر جملة من الخصائص العامة التي تجعلها في صورة روافد المجرى واحد أو فروع الشجرة واحدة .

يمكن حصر أهم المميزات المشتركة للمقاومات الشعبية في الفترة الممتدة من عام 1847 إلى عام 1916 في جملة من الخصائص البارزة:

ا- الزعامة الدينية (القيادة الروحية).

ب- العنصر الوطني (الأصالة الوطنية).

ج- القاعدة الشعبية الريفية .

د- التواصل و الاستمرار.

هـ- الانتشار والشمول.

ا-الزعامة الدينية (القيادة الروحية):

إنّ أبرز ميزة في المقاومات الجزائرية للاحتلال تمثلت في ارتباطها الوثيق بظاهرة الزعامة الدينية في جميع التجارب التي شهدها القرن ال 19م، وفي هذا السياق يشير المؤرخ جمال قنان إلى انه منذ بداية عام (1832م) تزعم رجال من الأسرة الدينية حركة المقاومة بشكل كاد أن يكون مطلقا ويدعم أبو القاسم سعد الله فكرة تبؤ الزعماء الدينيين قيادة المقاومة الوطنية عندما ذهب إلى التأكيد بان القيادة الروحية في حركة المقاومة الوطنية كانت دوما فوق القيادة الزمنية (العسكرية أو السياسية) ، وهذا ما نجم عنه تكريس لثنائية قيادة تكررت مرارا في المقاومات التي كان على رأس ها دوما زعماء روحيين من العلماء وشيوخ الطرق إلى جانب قادة ميدانيين من أعيان وفرسان القبائل الثائرة.

شكّل كل من الحاج علي السعدي والحاج محمد بن زعموم في المتيجة أول نموذج لهذه الثنائية في قيادة المقاومة في وجه الاحتلال في الفترة التي أعقبت سقوط الجزائر العاصمة، واستمرت تلك التجربة لمدة ثلاث سنوات من 1832-1835 انضوت بعدها مقاومة المتيجة تحت لواء الأمير عبد القادر، وأصبح الزعيم الروحي لها خليفة للأمير على منطقة المتيجة .

ومن الجدير بالإشارة هنا إلى أن مقاومة الأمير عبد القادر تمثل نموذجا استثنائيا فيما يتعلق بظاهرة الثنائية الروحية الزمنية في قيادة المقاومات ألان الأمير عبد القادر الوحيد الذي نجح في الجمع بين الزعامتين، عندما لقب بأمير المؤمنين[1] وأصبح بذلك القائد الروحي والسياسي والعسكري للمقاومة[2].

وإذا ما تم استثناء هذه التجربة لاعتبارات كثيرة تميزها عن بقية تجارب المقاومة، فان اغلب المقاومات التي أعقبت حركة الأمير عاودت الظهور بزعامة شيوخ الطرق و الزوايا الذين وجدوا في زعماء القبائل وفرسانها سندا لهم في الدعوة إلى الجهاد ومقاومة الغزاة.

إنّ نموذج التداخل والتكامل في الزعامة الثنائية الذي كانت مقاومة المتيجة إرهاصا لظهورها في السنوات الأولى للاحتلال أصبح متلازما تكرر بروزها في ثورة الشريف بوبغلة والحاج عمر الرحماني وفاطمة نسومر في بلاد القبائل في أعوام (1850-1857) وفي ثورة 1871بقيادة المقراني والشيخ الحداد (محمد أمزيان بن علي) .

وقد فسر البعض تزعم رجال الدين من العلماء وشيوخ الطرق الصوفية للمقاومة على أنه كان نتيجة للفراغ السياسي الذي تركه انهيار مؤسسات الدولة في بداية الاحتلال [3]، وفسره البعض الأخر بأنه كان بفعل عجز النخبة السياسية الحضرية القليلة العدد عن تشكيل قيادة سياسية بديلة للنظام القديم[4].

أما الكتابات الاستعمارية فقد وصفت ذلك الارتباط الوثيق بين الطرق الصوفية و الزوايا وحركة المقاومة بأنه كان دلالة على التعصب الديني والعرقي، وذلك بفعل تواجد الزعماء الدينيين على رأس كل ثورة، وبسبب الانخراط الواسع للزوايا في جميع المقاومات[5].

إنّ ما لا يمكن مجادلته هو أن صعود زعماء الأسر الدينية لتبوّأ قيادة الجماهير الريفية الغفيرة في مواجهة الغزو و الاحتلال، كان في سياقه التاريخي نتيجة مباشرة للفراغ السياسي الذي تركته دولة الداي المنهارة ولفشل الفئة الحضرية القليلة والمعزولة عن المجتمع القبلي الريفي العريض في أعماق البلاد وأطرافها في تولي المبادرة لصد الاحتلال، كما أن تلك الزعامة الدينية كانت قد امتلكت مكانتها السياسية في الجزائر في الفترة السابقة للاحتلال عندما أصبح ت أكثر تأثيرا في المجموعات المحلية من النظام البائد نفسه.

وهذا ما يسمح بتأكيد أن الزعامة الدينية للمقاومة لم تكن تعبيرا عن التعصب الديني أو العرقي كما تزعم المصادر الاستعمارية في قراءتها المغرضة للثورات الشعبية، وإنما كانت نتيجة تلقائية لانتعاش روح الجهاد في أعماق الجزائريين وتعبيرا صادقا على إرادة الأمة في رفض كل ما هو غريب عنها، ودفاعا مستميتا عن مقومات الحضارية المميزة [6]

لقد لعب الزعماء الدينيون وخاصة الرحمانيون دورا مهما وبارزا في أغلب جولات المقاومة الشعبية التي استمرت عقودا طويلة من الزمن[7] ، وذلك من الشيخ محمد بوزيان في الزعاطشة في عام 1849 إلى الحداد في بلاد القبائل عام 1871 فالشيخ محمد أمزيان في الأوراس عام 1879 وصولا إلى ثورة الأوراس الثانية في عام 1916،وكان على جانب الرحمانيين زعماء الطريقة القادرية والشيخية مثل الأمير عبد القادر (1832-1847) الشيخ العربي بن التاج (بوعمامة)في الفترة (1881-1904).

وجري بالذّكر هنا أنّ اختلاف الطرق وتعدد الزوايا لم يكن مانعا لبروز الجهود المشتركة في سياق المقاومة ضد الاحتلال ،ويعد انضمام ثورة الونشريس بزعامة سي الأزرق القادري إلى ثورة سيدي الشيخ ،وتعاون كل من بن ناصر بن شهرة والشريف بوشوشة في واحات الجنوب الشرقي وجبال عمور ثورتي أولاد سيدي الشيخ و المقراني نموذجا للانخراط الجماعي لإتباع الرحمانية والقادرية والسنوسية وحتى زعماء الزوايا المحلية من أمثال الحاج السعدي ومحي الدين القليعي في صفوف المقاومة.

ب-العنصر الوطني (الأصالة الوطنية):

من أهم مميزات المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي في الفترة من 1830إلى 1916 اعتمادها الكلي على العنصر الوطني في المواجهة ،وكان ذلك على النقيض من جيش الاحتلال نفسه الذي تشكل في الكثير من الحيان من مجموعات غير متجانسة ضمت إلى جانب الغزاة الفرنسيين جماعات من المرتزقة الأوروبيين ومن بينهم كتلة اليهود .

لقد حاول أحمد باي كسب الدعم والمعونة من السلطان العثماني محمود الثاني [8] وتوجيه الأمير عبد القادر في بداية مقاومته بطلب العون والمساعدة من السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن [9] باسم الروابط الدينية والمعنوية التي كانت تجمع بين الجزائريين ودولة الخلافة العثمانية ،وروابط الأخوة و الجوار مع الدولة العلوية .

إلا أن تلك المساعي لم تكلل بالنجاح والتوفيق ،وفي هذا السياق يمكن أن نذهب إلى اعتبار المزاعم الاستعمارية بوجود عوامل خارجية وراء كل الثورات الشعبية ،بأنه من أكبر الافتراءات التاريخية التي يمكن دحضها انطلاقا من ثبوتية توفر المقاومة الجزائرية على عنصر الأصالة الوطنية .

و في الواقع إن الاتهامات الفرنسية لزعماء العمالة الأطراف خارجية كالدولة العثمانية بالنسبة لمقاومة أحمد باي ،والمخزن المغربي بالنسبة للأمير عبد القادر ،وألمانيا بالنسبة لثورة عام 1871 وحتى للسنوسيين في ليبيا بالنسبة لبن ناصر بن شهرة والشريف بوشوشة ، لم تكن لتضفى على ظاهرة الانخراط الواسع النطاق للجزائريين في حركة المقاومة التي شكلوا فيها الوقود الذي استعرت به نار الثورات والانتفاضات دون غيرهم ،ودون انتظار يأتي من الأفاق البعيدة إن ميزة الأصالة التي يعكسها انفراد العنصر الوطني في عملية الدفاع غن البلاد في مختلف أرجائها يكتسي أهمية بالغة عند قراءة تجربة الاستماتة الجزائرية في وجه الغزو الفرنسي .لأنها تعكس وحدة الموقف ووحدة الشعور بالانتماء السياسي ،وتعبر عن ردود فعل واعية الأمة متجانسة اتجاه خطر أجنبي أحدق بها من كل جانب .

ج-القاعدة الشعبية الريفية :

ارتبطت المقاومة الجزائرية في مختلف مراحلها بسماء الزعماء الدينيين وأجواء القبائل الثائرة في الظاهر، ولكنها كانت في عمقها الحقيقي ثورات للفلاحين والريفيين الذين شكلوا السواد الأعظم من السكان في البلاد آنذاك.

ولم تكن تلك الجماهير الفقيرة من الفلاحين مهيأة لتلعب دور الجيوش النظامية في عملية المواجهة مع قوة عسكرية استعمارية محترفة كانت تعتبر في القرن 19 م من أقوى الجيوش الزاحفة في العالم، ولكن... تفكك

وانهيار الحكم المركزي لدولة الداي حسين في بداية الاحتلال، وما أعقبه من سقوط أخر القلاع عند أسوار قسنطينة عام1837من جهة ،وإخفاق جماعة الحضر في تبوأ زعامة الجماهير الجزائرية بسبب افتقادهم للسمعة والمكانة في أوساط المجتمع القبلي آنذاك من جهة أخرى ،كان من الأسباب والعوامل التي سمحت للزعامات الدينية والقبلية المحلية في تصدر جبهة المقاومة انطلاقا من الأرياف التي شكلت قواعد خلفية وخزانات وقود الأتون ثورات ضلت مشتعلة لفترة طويلة(10).

د.الإنتشار والشمول :

يعد انتشار ظاهرة المقاومة وشمولها لمختلف مناطق البلاد من الميزات الرئيسية، ولما كانت حركة الغزو حربا ضارية وطويلة الأمد فقد ظهرت حركة المقاومة في شكل ردود فعل مسلحة متواصلة ورافضة للقبول بالهزيمة النهائية لفترة طويلة استمرت إلى سنوات الأولى للحرب العالمية الأولى .

وخلافا لما كانت تذهب إليه الكتابات الفرنسية في الزعم بأن معاقل الثورات في الجزائر كانت مرتبطة بمناطق محدودة ومعنية. فإن الحقيقة التاريخية التي يمكن إثباتها انطلاقا من الشواهد التي يتيحها لنا ميراث المقاومة الجزائرية ،تؤكد بأن كل سكان البلاد عربا وبربرا ،بدوا وحضرا ،في هضاب الغرب وجبال الأطلس التلي، وفي جبال العمور و الأوراس، وفي واحات الجنوب ومنطقة الطاسيلي شاركوا في مواجهة حركة توسع الاحتلال الفرنسي(11).

ولعلّ إعطاء لمحة قصيرة عن تطور حركة المقاومة وانتشارها في الفترة 1847-1916سيكون كفيلا بتوضيح ميزة الانتشار والشمول، وكافيا لدحض الطرح الاستعماري

انطلقت المقاومة واستمرت من ثورة الزعاطشة في الزيبان بقيادة الشيخ .بوزيان (1848-1849) إلى ثورة الأوراس بقيادة الشيخ علي بن النوي عام 1916 (12)، ودام اشتعالها سبعة عقود لم تتخللها سوى فترة قصيرة من الهدوء لاستعادة النفاس والاستعداد لإنفجارات أخرى في بلاد القبائل بزعامة الشريف محمد بن عبد اله وفاطمة نسومر (1850-1857) وفي الأغواط ورقلة وتقرت بقيادة الشريف محمد بن عبد الله عام 1852،ثم جبال العمور والبيض و تيارت على يد أولاد سيدي الشيخ (1864-1881) ومن بعدهم الشيخ بوعمامة في المنطقة ذاتها (1881-1904)ويمكن القول بأن ظهور ميزة التواصل بين المقاومات بعد سنة 1847 يوعد الفضل الأكبر فيه إلى الأمير عبد القادر في سنوات (1830-1847) التي نجحت في إشراك معظم مناطق الجزائر في مواجهة حركة التوسع الاستعمارية .

حمل المغرب الكبير لواء الفكر والإسلام وأسهم فيه بجهود ضخمة وأبرز أعلاما وفقهاء و فلاسفة ،كما أسهم في الحركة الثقافية مرتبطا مع المشرق بالرحلات وتبادل الآثار فإذا جاء النفوذ الأجنبي ينشر ظلامه على هذه المنطقة و من بعدها الاحتلال الفرنسي للجزائر في عام 1830م مرهصا بالاحتلال تونس وليبيا والمغرب الأقصى ،كانت مقاومة الغزو الحربي والعسكري والثقافي الغربي مصدر يقظة للفكر العربي الإسلامي على قاعدة التحدي ورد الفعل ،وهناك بدأت حركة اليقظة والبعث والإحياء في ميادين ثلاثة هي التجديد في مجال الدين والعمل الوطني السياسي والتطور الثقافي والفكري في سبيل التحرير والاستقلال ومقاومة التغريب وإبراز القيم الأساسية إزاء الغزو الفكري للغرب .

وبرزت معالم النهضة واليقظة في الجزائر مبكرة ،واتخذت الحركات الجماعية ذات الطابع الإسلامي قبل أن تطأ قوات الاحتلال الفرنسي للجزائر، وقد تمثلت هذه المعالم في دعوات مختلفة إلى العودة لمنابع الإسلام الأولى ،والتحرر من الجمود الذي ران على المجتمع الجزائري نتيجة إغلاق باب الاجتهاد ،والتحرر عند المظاهر الزائفة التي غلبت على صورة الإسلام النقية في فترات الضعف الطويلة التي مرت بالعالم الإسلامي ،بعد أن تدهورت الإمبراطورية العثمانية ودخلت في مرحلة الانهيار ،وما كادت أقدام الاحتلال الفرنسي تطأ أرض الجزائر عام 1830م حتى بدأت حركات المقاومة الفكرية تسير بخطوات واسعة بجوار المقاومة العسكرية ممثلة في الطرق الصوفية التي أعطت البعد الروحي لهذه المقاومة، والحق أن الدور الذي قامت به هذه الحركات كان بعيد المدى وقوي الأثر في إيقاظ الجزائر ودفعها إلى الحركة والحياة والمقاومة، وبالجملة فإن حركات اليقظة والنهضة ذات الطابع الإسلامي كانت مقدمة لحركات العمل الوطني والسياسي التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى ،وقد تبلورت بعض هذه الحركات في نطاق الكفاح الوطني فيما بعد .

وما دمنا نتحدث عن الصوفية ودورهم خلال الحقبة الاستعمارية فلا بد أن نسجل ذلك الانخراط الروحي الذي عرفته الأمة الجزائرية منذ القرن 18م إذ ظهر وكأن وطأة الركود التي بلغت ذروتها آنذاك كانت تحدو المسلمين إلى الحركة وكان حتما أن تأتي الحركة ورد الفعل المتجانسة مع ظروف المرحلة وشروطها الثقافية ولما كان الغالب على العقلية الإسلامية يوم ذاك هو التمثيل الروحاني للكون وأسراره فقد رأينها تستجيب إلى ذلك الضرب من الفقه الصوفي الطرقي الذي ينشره أفراد سعوا يبددون عوامل الانسداد المتفاقمة من حول الأمة على شاكلة الخلوتي الأزهري بوقبرين وأحمد بن موسى بوحمار والتجاني الابن والدرقاوي...إلخ.عند الصوفيين.إذا فالطريقة هي التي تأسست على صفتي انقطاع القلب عن الأغيار وخلو اليد من الدنيا ،إذا فالطريقة هي حلقة الوصل بين الشريعة التي هي المنطلق إلى الحقيقة الإلهية ،وعلى هذا الأساس قال المتصوفة :"لا حقيقة من دون شريعة ،ولا شريعة من دون حقيقة"

والمتعارف عليه أن كل الطرق التي أنشرت في شمال إفريقيا كانت من طريقتين هما الشاذلية والقادرية ،فالأولى كانت بشكل موسع في المغرب والثانية كانت بشكل واسع في الجزائر ويستنتج من الدراسة التي قدمها بوسكي عام 1954أن عدد مريدي الطرق الصوفية في الجزائر عام 1930بلغ 250 ألف مريد [(13)]

وللطريقة الصوفية عدة تعاريف مختلفة تبعا لمكوناتها ولوسائلها التربوية والروحية وللأهداف التي تنبغي الوصول إليها وتحقيقها ،فهي أسلوب عملي لرعاية سلوك المريد وتوجيهه عن طريقة اقتفاء أثر طريقة معنية في التفكير والشعور والذكر والتعلم والعمل تؤدي من خلال تعاقب مراحل المقامات وتصاعدها في ارتباط متكامل مع التجارب البسيكولجية أو النفسية المسماة أحوال[(14)]،أو سلطة قوية بما تملك من أتباع وأموال مختلفة.

وسلطة روحية معنوية على الناس من خلال مشايخها [(15)]

وكما نلاحظ أن الطريقة الصوفية سلطة حاكمة تأمر وتنهي ، وتتسع صلاحيات هذه السلطة وتقوى بحسب الظروف الاجتماعية والسياسية ، كما تقوى بحسب ما تملك من مؤيدين وأتباع وأموال و بحسب شخصية الشيخ أو المؤسس وأعماله وأثاره .

يقول "**لويس رين سنة** **1884**" لقد حاول رؤساء الدين الإسلامي يقصد رؤساء الطرق الصوفية والمرابطين " أثارة المشاعر الدينية لمكافحة ما يرونه خطرا كما حاولوا توحيد الروابط الروحية بين الأمة الإسلامية ، وإذا كانت مقاومته م في البداية محتشمة وغير منظمة فأنها سرعان ما أصبح ت في غاية التنظيم و التطور وشملت جميع البلدان الإسلامية وقد توصلت اليوم إلى إنشاء جامعة إسلامية أصبح ت خطرا يتهدد جميع الشعوب الأوربية التي لها مصالح في كل من افريقية واسيا ، وهذه الجامعة الإسلامية تتمثل قوتها ووسيلة تحريكها وتنفيذها في الجمعيات السرية أو الطرق الصوفية التي تمارس تأثيرا عظيما على الجماهير [16].

ويقول "**دبون Dupont** " و " **كوبولاني Coppolani** " وللمشايخ والمرابطين نفوذ عظيم ومكانة في الجزائر عند جميع الأهالي لاسيما البربر ، وان العلماء والمدرسين وأئمة المساجد لا يكادون شيئا بالقياس إلى المرابطين ومشيخة الطرق"

كما أن هذه المؤسسات ، وخاصة تلك الواقعة منها في الأماكن النائية عن المدن ، وقد تجاوزت حدود التعليم الديني أو العلمي إلى التربية العسكرية ، وهو ما كان يسمى آنذاك بالرابطات وهي مؤسسات تربوية يجتمع إليها الطلبة الداخليين الذين يتلقون إلى جانب التعليم بعض من التدريب العسكري ، فقد كانت تتوفر إلى جانب المكتبة أيضا على مخزن للأسلحة والذخيرة وربما كان ذلك مدعاة لسخط الاستعمار على هذه المؤسسات ، إن حقد الاستعمار على هذه المؤسسات دفعة إلى أن عاش فسادا فيها فصادر ممتلكاتها وهجر طلابها وحولها إلى ثكنات أو مؤسسات أخرى[17].

يذكر **حمدان خوجة** في كتابه "**المرآة**" أن شيوخ الطرق الصوفية هم الذين أمروا جميع المواطنين الجزائريين بالتعبئة العامة والدفاع عن المدينة الجزائر العاصمة بعد تخلي الأتراك عن هذه المهمة وكشف الضابط " **ديي نوفو**" في كتابة "**الإخوان**" الصادر سنة 1845 عن الدور الرئيسي الذي أدته الطرق الصوفية في مقاومة الاحتلال ، وتحدث النقيب **ريتشارد** عن ثورة "ا **لظهرة**" التي قامت سنة 1845 مبرزا الدور المهم الذي قامت به الطرق الصوفية في هذه الثورة ، ومن تقرير المفتشية العامة حرر بالجزائر سنة 1864 يعترف بالدور الخطير الذي تقوم به الطريقة الدرقاوية " الدرقاويون كانوا معادين لنا كل العداء لان غايتهم كانت سياسية بوجه خاص ، أرادوا أن يشيدوا من جديد صرح إمبراطورية إسلامية ويطردوننا ، إن هذه الطريقة متشددة جدا في الجنوب ومن الصعب جدا مراقبتهم لقد كانت ندوات الإخوان سرية و كانت أغلبية رؤسائهم معروفة ...... انم شائخ الزوايا يختارون في تدريبهم للقراءة نصوصا من القران معادية لنا ، مما يحط فيهم وبسرعة الشعور الذي سعينا لتطويره فيهم من طرف مؤسساتنا وتعتبر التأثيرات الدينية من ألد أعدائنا والتي يجب أن نخشاها وتخطط لها سياستنا ، ولقد كانت القبائل الأشد عداء لنا هي تلك التي ينتشر فيها التعليم الإسلامي .

وجاء في تقرير القائد الأعلى" **دي توربيل** " بتاريخ 04 أوت 1859 بعد الاضطرابات التي رافقت المعارك التي خاضوها ضد الجزائريين ما يلي :" إن مبعوثين وفدوا من مختلف أثناء الشرق وينتمون إلى مجموعة سيدي عبد الرحمان بوقبرين الدينية الرحمانية التي يسكن مقدمها الأكبر سي المختار بواحة أولاد جلال (بسكرة) ليسوا غرباء عما يجري وقد كانت أشغال الجان التجمعات التي شرع فيها من نواحي عدة في نفس الوقت موضوعا لخطبهم ومواعظهم"[18].

لقد كانت السرية التامة: التي تحيط بالزوايا، وما يجري داخلها، من نشاط شيوخها والتي لم يستطيع الاستعمار بما لديه من إمكانيات ووسائل الاطلاع عليها، يقول **ماك ماهون** سنة 1851:"يجب على الإنسان أن يقضي حياته كلها في الزوايا حتى يعرف ما يجري فيها وما يقال فيها "[19].

ويقول المؤرخ الفرنسي **مارسيل ايميري** : "أن معظم الثورات التي وقعت خلال القرن التاسع عشر في الجزائر كانت قد أعدت ونظمت ونفذت بوحي من الطرف الصوفية، فالأمير عبد القادر كان رئيسا لواحدة منها وهي الجمعية القادرية، ومن بين الجمعيات المشهورة التي أدت دورا أساسيا في هذه الثورات: الرحمانية والسنوسية والدرقاوية والطيبية ".[20].

إن بعد المقاومات الشعبية العسكرية التي قادتها الطرق الصوفية لفترة طويلة (من 1832-1916م) ، تغير أسلوب ها في مواجهة الاستعمار، بعد ذلك لعدة معطيات تاريخية، ففي فترة المقاومة العسكرية وظفت التنظيمات الصوفية (الطرق الصوفية) [21] الخطاب الديني الصوفي الجهادي ، بفضل سلطة المشايخ الروحية ،على جماهير المجتمع وخاصة الريفية ، وما كان لهم من تقديس واحترام اجتماعي الذي تمتع بها المتصوفة .

ظهرت في مسيرة المقاومات العسكرية ضد الاحتلال الفرنسي بحيث كان هناك الالتفاف و الوحدة حول الزعامة [22]من طرف الأتباع [23] وأنتج في هذه الفترة خطابا صوفيا كان يدعو إلى الجهاد بتوظيف النص الديني و الكرامة وخوارق العادة والقول المأثور والرمزية في الشعر الصوفي وممارسة العبادة، وفن الصحبة وفق القواعد و التعاليم الصوفية ، كما حدث مع أتباع الشيخ الحداد ، مقدم الطريقة الرحمانية ببلاد القبائل ، عند خروجه من مسجد قريته بعد صلاة الجمعة فخطب في الناس وقال :"سنرمي الفرنسيين من وراء البحر كما أرمي عصاتي هذه" ورماها على الأرض فهب الأتباع إليها لأخذ البركة وبعد ذلك توجهوا إلى مقاومة الاستعمار تأثرا بهذا الخطاب الصوفي .

وبعد فشل المقاومة العسكرية إلى قادتها الطرق الصوفية المتعددة و المنتشرة بالجزائر وخارجها خلال الحقبة الاستعمارية، لأسباب متعددة منها التفوق العسكري الاستعماري، وأسلوب اختراق هذه التنظيمات من خلال تطبيق سياسات الاحتواء و الولاء و التقسيم، والمراقبة الشديدة وأعمال الجوسسة، وإحداث صراعات داخلية بسبب الزعامة والسلطة التي خلقتها المخططات الفرنسية ، بتأثير واستغلال الدراسات الإستشراقية للطرق الصوفية في الجزائر ، من أمثال دراسات "**كوبولاني**" "**ولويس رين**" وهم قادة عسكريين في الغالب كانت تهدف هذه الدراسات إلى فهم المنظومة الصوفية لكل طريقة بغية السيطرة عليها والقضاء على روح المقاومة فيها .

يتفق علماء الأنتروبولوجيا على وجود خصوصيات في الجوانب الاجتماعية والثقافية والفكرية والأخلاقية تميز المجتمعات عن بعضها البعض ،إن ما يميز المجتمع الجزائري من خصوصيات تلك المتعلقة بالمؤسسات الدينية وعلى رأس ها الزوايا والطرق الدينية التي كانت تعتبر المركز الذي تدور حوله كل النشاطات السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية على مدار قرون من الزمن .

انطلاقا من هذا الأساس ،يحقق لنا نستجوب التاريخ وأن نتساءل عن دور الزوايا في المقاومة الشعبية والثورة الجزائرية ،كما يحق لنا أن نتساءل عن مسيرة رجالها ومواقفهم إزاء القضايا الوطنية المختلفة نظرا لما يتمتعون به من مقدرة واحترام وما يحضون به من تقدير كبير في الذاكرة الجامعية .

إنّ المتأمل في تاريخ الجزائر المعاصر بعامة وتاريخ الحركة الوطنية بخاصة يلاحظ بأن جل البحوث غلب عليها الاهتمام بالجانب السياسي والعسكري ،في حين ظلت المؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية والمهنية في حاجة إلى مزيد من البحث والتنقيب ،كما أن الدراسات التي تناول ت موضوع الزوايا والطرق الدينية قد ركزت في أغلبيتها على دورها في صد العدو الاستعماري للجزائر خلال القرن 19م من خلال تأطير المقاومة الشعبية ،بداء بمقاومة الأمير عبد القادر (1832-1847)وصولا إلى ثورة الشيخ بوعمامة (1881-1904م) ألم تكن الزوايا مصدر للعلم والهداية وحامية الدين والصلاح ،ومنبع اليقظة والنهضة ...منبت لثورات عديدة في الجزائر على الإستعمار.

إن المؤسسات الدينية تأخذ أهميتها من تعدد وتنوع وظائفها المختلفة ذات الأبعاد الوطنية والعالمية. و ما تزال هذه المؤسسات لم يخلع اللثام عنها، ومازالت تتطلب من الباحثين المزيد من الإضاءة والتمثيل والتحليل لإعطائها حقها وتنالوها من مختلف الجوانب العلمية والفكرية.

تعتمد مقاربتنا للموضوع، من هذا المنظور ،على التحليل السوسيولوجي لإبراز مكانة الزوايا اجتماعيا ودورها الثقافي والفكري في المجتمع الجزائري طوال فترة تواجد الاستعمار الفرنسي واستعراض التحولات التي عرفتها هذه المؤسسات الدينية من خلال تعاملها مع النظام الاستعماري وعلاقتها بالحركة الوطنية والتوقف عند مظاهر تقهقرها سياسيا واجتماعيا منذ مطلع القرن العشرين .

وتنقسم هذه الدراسة من الناحية الزمنية إلى ثلاث مراحل .

1 - مرحلة المقاومة والدفاع عن الأرض .

2 - مرحلة الضعف وتقلص النفوذ .

3 - مرحلة الثورة التحريرية .

1-مرحلة المقاومة :

لقد اهتمت أغلبية الدراسات الأنتروبولوجية الاستعمارية التي كانت تهدف إلى معرفة الأخر بموضوع الزوايا والطرق الصوفية مشيرة إلى دورها الرائد في مقاومة الاحتلال باعتبارها قوة مجاهدة ومدافعة عن الأرض ومعقل للمقاومة الشعبية في بلادنا ضد الغزو الاستعماري الفرنسي ،بالرغم من أنها لم تكن مؤهلة لذلك .حملت المؤسسات الدينية على عاتقها مسؤولية المقاومة بعدما تفككت قوة النظام العثماني التي إنهارت بسرعة كبيرة أما م زحف الجيش الفرنسي المحتل كما إن جل البحوث التي أنجزها بعض المختصين المكلفين من قبل السلطة الفرنسية حول دور الزوايا ومكانتها في المجتمع الجزائري تبرز أهميتها بوصفها قوة تقليدية منسجمة تتمتع بسلطة دينية مؤثرة على إتباعها ومريدها ،وتكشف أمر خطورتها على المصالح الاستعمارية نظرا لصلتها الوثيقة بمقاومة السكان الجزائريين .إن هذا الاهتمام كان موجها لمعرفة الواقع الإسلامي في الجزائر ودور الزوايا فيه على الاعتبار إن أغلب زعماء المقاومة الوطنية ينتمون إلى هذه المؤسسات الدينية لما لها من حضور قوي في نفوس الجزائريين، فكان المحتل الفرنسي يرى فيها مراكز قوة متعددة الوظائف موجهة لتعبئة المسلمين من اجل مقاومة الغزو الاستعماري ورده والدفاع عن أراضيهم، إن الغرض من فهم هذه الظاهرة حسب رأيهم يكمن في السيطرة عليها ومضايقتها للحد من أنشطتها .

تبين الدراسات ومختلف الوثائق والأبحاث التاريخية التي تناولت الإسلام والطرق الدينية في المغرب العربي بأن الدين المحمدي كان يمثل العنصر الأساسي للاتحاد والتماسك الاجتماعيين، وللمحرك لكل الانتفاضات الشعبية ضد السلطات المركزية، فتميزت هذه المؤسسات الدينية بالاستقلال الذاتي وفي بعض الأحيان موازية للسلطة المركزية الرسمية، تنافس في بعض الأحيان سيادتها وتتمتع بنوع من الاستقلال النسبي ليجعلها تتحرك خارج نطاق نفوذها لتملا الفراغ، و الفضاءات التي تغيب فيها سلطة الدولة المركزية، ولقد ورثت هذا الانفصال من الحقبة التاريخية للحكم العثماني في الجزائر، بحيث كانت تتحالف وتتعارض معه طبقا لما تمليه مصالحها الحيوية، إن الثورات التي قادها شيوخ الزوايا وزعماء الطرق الدينية ضد تجاوزات الأتراك باعتبارها حماة القبائل المحلية لدليل قاطع على الرصيد الاجتماعي الذي كان يتمتعون به .إن واقع الطرق الدينية وأهميتها في الواقع الجزائري يبين ارتباطها بالبيئة الاجتماعية القبلية التي تتواجد فيها ،فكلما توغلنا في داخل المجتمع الريفي والمناطق القبلية نسجل انتشار قوتها وبفضل مركزها الاجتماعي المرموق ،اضطلعت المؤسسات الدينية بمهام جليلة ساهمت في تلبية حاجات اجتماعية وثقافية ودينية وتربوية تصب كلها في الحفاظ على الذات الجزائرية وتحصينها .

يؤكد **مارسيل سميان** من الأمر قائلا"بأن تلك المؤسسات الدينية غالبا ما تتحول إلى معقل الثورة ضد الأجنبي وضد الرومي المدنس لأرض الإسلام .

وبالتالي فإن: "الزاوية على حد قوله"لم تعد فقط مكانا للتعليم القرآن الكريم،بل أصبح ت منبتا للجهاد ترسم في ظلام أركانها مخططات الانتفاضات بـ "الميليشيات المسلحة للدفاع ونشر العقيدة مستعدة للانطلاق بمجرد أول إشارة من قائدها" .

إنّ هذه الأحكام الصادرة من الكتاب الفرنسيين تبين بأن الطرق الدينية والزوايا كانت تمثل القوة الوحيدة القادرة على تكوين جبهة الصمود والتصدي وتحريك آليات الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر ،مما جعل الإدارة الفرنسية طيلة القرن 19 وبداية القرن 20 تخشى الطرق الدينية ،وترى في كل تحرك جهادا مقدسا موجها أساسا ضد الاستعمار ومصدر قلق مستمر ضد وجوده .يعتبر الجهاد من المقتضيات الدينية الأساسية تساعد على تعبئة وتجنيد الجزائريين خاصة عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن الكيان الوجودي للإنسان الجزائري المسلم وحماية ممتلكاته ضد غزاة أجانب يدنون بغير الإسلام .لقد استمر صمود الجزائريين طوال فترة الغزو متمثلا في مقاومات شعبية تواصلت طيلة القرن التاسع عشر. قادها رجال الدين وطبقة الأعيان للدفاع عن الأرض والعرض .غير أن هذه المقاومة المسلحة باءت بالفشل لأسباب موضوعية تكمن أساسا في عدم توازن في القوى ولإمدادات العسكرية من جهة وتشتت العمل الجهادي جغرافيا وزمنيا من جهة أخرى .

ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى النظام تكوين المجتمع الجزائري المبني على أسس النمط القبلي ،بحيث يجعل من درجة الانتماء الفرد إلى القبيلة أقوى وأعظم من درجة الانتماء إلى الوطن في بعده السياسي والإقليمي ،إن إشكالية التناقض بين فكرة القبلية ومسألة الوطنية أثارت اهتمام الدراسات الأنتربولوجية التي توجهت إلى معرفة ووصف مكونات المجتمعات العربية الإسلامية ،أين يأخذ التكوين القبلي واقعا اجتماعيا ملموسا .إن فكرة الجنسية ومفهوم الوطنية ،يقول **كولونال نيكوس** ،لم تتبلور بعد بشكل واعي لدى الفرد الجزائري ،الذي لم يدرك

بشكل واضح مجموعة المصالح التي تتجاوز وتفوق إطار القبلية ،وهذا ما يفسر السهولة النسبية لاحتلال الجزائر .

إنّ غلبة الروح القبلية السائدة في الريف الجزائري حالت دون انخراط بعض من القبائل والطرق الصوفية في مشروع كل من مقاومة الأمير عبد القادر في القطاع الوهراني وأحمد باي في الشرق الجزائري ،ومما يتبين ضعف إدراك البعد الوطني لهذا المشروع الذي يفشل في توحيد القبائل وتجنيدها ضد الاحتلال الفرنسي من جهة وإرساء أسس لبناء الدولة الجزائرية المعاصرة من جهة أخرى .

لم تعتبر الزوايا رابطات للجهاد ومكانة للصلاة والعبادة فقط ،بل كانت تمثل فضاء اجتماعيا وثقافيا ودينيا يساهم في بناء لإنسان الجزائري وتكوين شخصيته في ضل القيم والمبادئ الإسلامية بالنظر لما كانت تتمتع به من رصيد مذهبي مؤثر وبإعتبارها مركزا للحركة التقليدية والدينية والمؤسسة التي يلجأ إليها الناس لحل نزعاتهم ومشاكلهم ،فقد أرست فعلا الدعائم الذاتية الجزائرية .

تمثّل الزّوايا فضاءاً اجتماعيا نظرا لما تقوم به من تأطير المجتمع المحلي وتوجيهه في إطار العلاقات الاجتماعية المحافظة على التراث والعادات والتقاليد المكرسة ،نظرا للمكانة العالية التي تحتلها في السلم الاجتماعي ولما يتمتع به أصحابها من منزلة وسمعة طيبة واحترام وتقدير كبيرين وسلطة معنوية على السكان ،فإن نداءهم للجهاد قد لقي صدى واسع لدى الأتباع أثناء مرحلتي المقاومة والثورة التحريرية ،كما كانت مقصدا لطلاب العلم وعابري السبيل واللاجئين إليها والفقراء والسماكين ،نظرا لما كانت تتوفر عليه من وسائل وأطر للتعليم والتربية وللأعمال الخيرية ،فمكانها مقدس لا يمكن لأي أحد تدنيسه أو لاعتداء عليه كما كانت مرجعا للقضاء تبرم عقود الزواج والطلاق والصهر على المحافظة على الأحوال الشخصية.

أما التفوق العسكري والسياسي والاقتصادي والثقافي للعنصر الأوربي وما انجر عنه من اضطرابات في البناء الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمجتمع المحلي وتفكيكه ،وأمام السياسات المنتهجة من طرف السلطات الفرنسية وما تحمله من أهداف إيديولوجية هدامة للقيم الوطنية من خلال تجهيل الشعب الجزائري والقضاء على مؤسساته التربوية والتعليمية والدينية كالمدارس والمساجد والزوايا .

قامت الإدارة الفرنسية بتحويل الكثير منها إلى مؤسسات إدارية وثكنات وكنائس وكاتدرائية كما قامت بمطاردة العلماء والفقهاء وحفاظ القرآن الكريم والمدرسين ونفيهم في داخل البلاد وخارجها بعد ما قمت بنزع أرضيهم ومصادرة أملاك الأوقاف الإسلامية التابعة للمؤسسات الريفية التي كانت توفر الإمدادات اللازمة للإنفاق على المشاريع التعليمية والتربوية وعلى البرامج الدينية المختلفة .

فبعدما كانت الزوايا مهيمنة طيلة القرن 19م. و إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى على الحياة السياسية والثقافية في الجزائر بدأت تفقد أهميتها وقيمتها في الحياة الاجتماعية وبدأ يتراجع دورها ويتقلص نفوذها الذي كانت تتم عبه في السابق.

إنّ علاقتها الجدلية مع الاستعمار تغيرت منذ بداية القرن(20م)،وهذا التغير يتمثل في اعتمداها أسلوب آخر للمقاومة بعدها كان في السابق يعتمد على القوة العسكرية واتجهت نحو المقاومة الثقافية والسياسية داخل المجتمع الجزائري ،خلال المرحلة الاستعمارية.

هذا التغيير في أسلوب المقاومة كان نتيجة تاريخية ،بما آلت إليه التنظيمات الصوفية من فقدان القوة العسكرية ،وأسلوب المقاومة الثقافية والسياسية هو تحول إستراتيجي ،عكس القرن العشرين خلال الحقبة الاستعمارية بالجزائر بظهور تيارت الحركة الوطنية واختلاف إيديولوجياتها بتعدد هوية ،الخطابات المنتجة الموجهة إلى جماهير المجتمع.

إنّ اعتماد هذا النمط من المقاومة ظهر في الوسائل المتعددة من طرف الطرق الصوفية، عكسه التطور الجديد في أسلوب النضال السياسي والثقافي المنتهج بظهور الأحزاب الجمعيات والجرائد ورسائل الاحتجاج والاجتماعات والعرائض والمجلات والكتب... الخ.

ومن هذا التحول والتغيير في أسلوب مقاومة الاستعمار الفرنسي من طرف التنظيمات الصوفية خلال القرنين (19و20) وما يميز كل أسلوب مقاومة وخطابتها المنتجة وبسلطة تأثيرات متعددة ومجسدة بمنظومة صوفية تعددت أشكالها ومضامينها بهدف كسب الولاء والوحدة وتكوين قاعدة شعبية متميزة دينيا وثقافيا واجتماعيا ترفض والخضوع والاستسلام لسلطة المستعمر .....

*** الهوامش و المراجع :**

1 – جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المجاهد ، الجزائر، 1999 ، ص 105.

2 – أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، دار الاداب ، بيروت ، 1969 ، ص117 .

3 – يحيى بوعزيز ،المقاومة كما صورتها الكتابات الفرنسية، مجلة الدراسات التاريخية ،العدد 05،1988، ص:159-160

4 – محمد الطيب ،مظاهر المقاومة الجزائرية (1830-1954) منشورات وزارة المجاهدين ،ط3،الجزائر،2000،ص :79

5 – يحي بو عزيز ، مرجع سابق ،،ص:160

6 – يحي بو عزيز ،مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية، مرجع سابق، ص: 308

7 – غانم محمد ،مقاومة الأمير عبد القادر من خلال الإيستوغرافية المغربية ،مجلة الدراسات التاريخية ،العدد 8،1993-1994،ص:38

8 – غانم محمد ،مجلة الدراسات التاريخية ،العدد 05،1988،مرجع سابق ،ص:160.

9 – أبو القاسم سعد الله ،محاضرات في التاريخ الجزائر الحديث، ط3،الشركة الوطنية للنشر، الجزائر ،1982،ص:71.

10 – ماريس أيغرتو،حقيقة الأمة الجزائرية ،منشورات سوسيال ، باريس ،2000، ص:45.

11 – محمد الطيب ،مظاهر المقاومة الجزائرية (1830-1954)،منشورات وزارة المجاهدين ،ط3،الجزائر،2000،ص:45

12 – يحي بوعزيز ،أضواء على ثورة أولاد سيدي الشيخ ،مجلة الدراسات التاريخية ،العدد 09،1995،ص:173.

13– Bousquet introduction a l étude de islam .u é édition .alger1954p :21

14 –سنبسر ترمنجهام ،الفرق الصوفية في الإسلام ،ترجمة عبد القادر البحراوي ،دار العربية للنهضة ،بيروت ،1997،ص :26

15 –فيلالي مختار، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني ، دار الفن القرافيكي، باتنة ط.ب،ص64.

16– RINE louis, histoire de l insurction en algèrie de 1871 . alger.1981.p :65

17 –صبحي حسان ،النظام لتربوي الاستعماري في الجزائر ، رياض العلوم للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، الجزائر ،ط 1 ،2005م،ص:23،24

18– RINE louis, Ipid,, p . 66

19– Ipid,, p . 70

20- Ipid,, p . 75

21 تقصد هنا الطرق الصوفية التي ثارت ضد الاستعمار الفرنسي

22 – نقصد بالزعامة (القيادة العسكرية والروحية معا أو العسكرية أو الروحية مثل الأمير عبد القادر ، الشيخ حداد ..

23 – الأتباع أو الإخوان أو الفقراء حسب تعدد الطرق الصوفية تعددت التسمية .